الدين والأخلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الجديث

الظاهر أن الأستاذ النمراوي رجل حسن النية صادق السريرة. وقلت الظاهر لأني لا أعرفه؛ ولا أريد أن أتعرض لنقده ما يسميه المذهب الجديد، ولا للنزاع الثائر بين أنصار الرافعي وبين أنصار العقاد . ولو كان الأستاذ قد اكتفى بالنقد الفني وقصره على ذلك النزاع الفني لسلم من بعض المفوات التاريخية والاجتماعية؛ فقد قال إن نزعة التجديد يرجع أولها إلى نحو ثلاثين سنة ، وقد ذكر فيما ذكر من التجديد أخذ الآراء الأوربية ، ولم يكتف بذكر ما أخذ منها مما هو في باب الآداب، بل ذكر أيضاً ما اقتبس من النظم والمبادئ الاجتماعية . وهذا الوصف الشامل للتجديد لا ينطبق على نزعة بدأت منذ ثلاثين سنة ، وإنما ينطبق على النزعة بوجه عام منذ جاء نابليون إلى مصر ، ومنذ عهد محمد علي باشا وإسماعيل باشا ، ومنذ أدخلت المطابع وأرسلت البعوث العلمية واقتبست القوانين المدنية ، ونظمت المحاكم الأهلية التي صارت تحكم بغير أحكام الشريعة الاسلامية ، وكثر نقل الكتب إلى العربية. والأستاذ النمراوي يعيب على المجددين أنهم يريدون رفض بعض أحكام الشريعة ، ويذكر كيف أن بعض الكتاب يجبذ منع تعدد الزوجات. ويقول الأستاذ إن للدين وحدة تامة فلا يجوز أخذ بعضه وترك بعضه . ويا حبذا لو أن الأستاذ كان قد فصّل هذه الناحية من التجديد في مقال مستقل عن النزاع على التجديد في معاني الشعر والنثر، إذ ما صلة الدين قاموا بانشاء المحاكم الأهلية وأحلوا أحكامها محل الشريعة الاسلامية ، وما صلة الدين يريدون منع تعدد الزوجات ومنع الطلاق، بمعاني شكسبير والمتنبي وملتون وأبي العتاهية مثلاً ، ولعل أكثرهم كانوا لا يهمهم النزاع الفني الأدبي مطلقاً . نعم إن الدين والأخلاق لها مظاهر في الشعر والنثر فكان ينبغي للأستاذ النمراوي وقد حكم للمذهب القديم أنه قوام الدين والأخلاق ، وحكم على المذهب الجديد أنه بؤرة الالحاد والمجون ، أن يثبت هذا الزعم فينفي عن شعراء المذهب القديم كل كفر والحاد ومجون، وينفي عن شعراء المذهب الجديد كل تدين وإيمان بالفضائل مستشهداً بأقوالهم من شعر ونثر فان هذه هي الطريقة الفنية للمفاضلة بين المذهبين من حيث الدين والأخلاق. وإن لم تخني الذاكرة فان الأستاذ قد لخص المذهب الجديد في الأدب بأنه نزعة تغليب دين على دين. وإذا كان لهذا القول معنى فمعناه أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب الديانة المسيحية على الديانة الاسلامية. فاذا لم أكن مخطئاً في هذا التفسير كان واجباً على الأستاذ أن يقيم الدليل على أن أدباء المذهب الجديد يريدون تغليب دين على دين، وقد نسي الأستاذ أن كثيراً من مظاهر الحضارة الأوربية الحديثة لا علاقة له بالمسيحية التي هي دين أكثر الأوربيين ، أو لعل الأستاذ قد أراد أمراً آخر لم نفهمه. ولو رجع الأستاذ إلى العصر الذي كانت فيه النزعة الدينية المسيحية متغلبة في أوربا وهو عصر القرون الوسطى عصر الزهد والرهبنة والتقشف لعلم أن المحافظين من رجال الدين والكتاب كانوا يخشون على الدين والأخلاق من غزل العرب ومجون شعرائهم وقصصهم ومن حرية أفكارهم في المسائل الدينية والكونية، وكانوا يرمون الأدب العربي بالاباحية في الأخلاق، وكانوا يلومون الآباء الذين كانوا يرسلون أبناءهم إلى مدارس البلاد العربية كالأندلس وصقلية؛ فلم يكن عداؤهم للكتب العربية الدينية فحسب ، بل كان عداؤهم للكتب الأدبية العربية والفكرية أشد. وموقف هؤلاء المحافظين من الأدب والفكر العربي كان شبيهاً بموقفهم من الأدب والفكر الاغريقي القديم . وهذه الحقيقة ينبغي أن تنبه الأستاذ إلى أن الدولة العربية الاسلامية لم تلبث على الفطرة السليمة وعلى حالها من الأدب كما كانت في صدر الاسلام مثلا بل دخلها الترف وتفشت فيها فائدة الحضارة وكثر المجون في أقوال الشعراء والكتاب وبقيت أصناف المجون والالحاد مخطوطة إلى عهد أن دخلت المطابع البلاد العربية الاسلامية . ولا أحسب أن أهلها كانوا على فطرة يخشى عليها من تلك الكتب فان حالة الأخلاق في عهد دخولها لم تكن أرقى مما هو موصوف في تلك الكتب إلا في أوساط محدودة معروفة بالنزاهة والعفة والاستقامة وصدق القول والعمل؛ وكان يضرب بها المثل؛ وكانت كالشامة البيضاء تنتت نفسها لوضوحها في الجلدة السوداء. ولا تنس

أن البدو كانوا بطبيعتهم يكرهون الضوابط والروادع أية كانت، فسرعان ماحثهم الحضارة ولذائذها على التحلل من روادع الدين. وقد بدأ المجون يعود إلى استفحاله بعد عهد قريب من صدر الاسلام، وبلغ أشده فى الدولة العباسية، وكان مصحوباً فى كثير من الأحوال بالكفر والزندقة والالحاد، وكان كل منهما فى بعض الأحايين مستقلا عن الآخر ، فقد كان بعض الملحدين من أشد الناس زهداً ومحافظة على الفضائل كما كان المعرى مثلا

يقول الأستاذ إن المذهب الجديد فى الأدب الذي يقول عنه الأستاذ إنه بدأ منذ ثلاثين سنة خطر على الأخلاق والدين ، فهل يستطيع الأستاذ أن يأتى بأبيات من شعر هذا المذهب الجديد فى شناعتها كأبيات ابن الرومى النونية التى يقول فيها :

صوت يد الحجان فى المجين أو صوت رجلى عامل فى طين

وهى أبيات قد اختارها له السيد توفيق البكرى فى كتاب (صهاريج اللؤلؤ) الذى ألفه كى يقرأه الناس رجالا ونساء وفتياناً وفتيات ، والبكرى كما يعلم الأستاذ الغمراوي كان شيخ السادة البكرية ورجلاً من رجال الدين والفضل ومن أدباء المذهب القديم، ولكنه لم يتحرج من إطلاع سيدة أو فتاة فاضلة على ما فى كتابه هذا من المجون الشنيع . ولأن يعطى الأديب من أدباء المذهب القديم أى قول قاله شعراء وأدباء المذهب الجديد لأخته أو لفتاة من أقربائه لتقرأه ؛ لأصون لها ولأخلاقها من أن يعطيها كتاب صهاريج اللؤلؤ هذا إلا إذا طمس المجون قبل أن يقدم إليها الكتاب. وقد طبع الشيخ شريف جزءين من ديوان ابن الرومى فى أحدهما أرجوزة مطلعها : (رب غلام وجهه لا يفضحُهْ) وفيها يصف طرق اللواط فى أوضاع وأشكال مختلفة . وقد عنى الشيخ شريف بشرح لفظه ومعناه كما عنى السيد توفيق البكرى بشرح الأبيات النونية. والشيخ شريف كان مفتش اللغة العربية وأديباً من أدباء المذهب القديم، ولكنه لم يتحرج كما لم يتحرج البكرى من شرح وطبع هذا المجون وإيضاح معناه كى يقرأه ويفهمه الفتيان والفتيات . فأى أديب من أدباء المذهب القديم يرى أن يعطى أخته أو أخاه الصغير هذا الكتاب ، أو أن يطلعهما على قصيدة ابن الرومى أيضاً فى (بوران) . أو على ديوان أبى نواس أو على مافى كتاب الأغانى أو كتاب يتيمة الدهر للثعالبى من مجون لا تسمح أية دولة أوروبية بنشره ، بينما أدباء المذهب القديم يشرحونه ويطبعونه ويستحلونه فى مجالس أنسهم ويضحكون تفكهاً به، حتى إذا جاء ذكر ما يسمى بالمذهب الجديد وأثر الأدب الأوروبى فيه أخذتهم رعدة الغضب وادعوا أن المذهب القديم عماد الأخلاق والدين، وأن المذهب الجديد بؤرة المجون والاباحية والالحاد . إن المسألة بسيطة والأمر هين. نستطيع أن نطبع على الناحية اليمنى من صفحات المجلة ما نجده من مجون وإباحية شعراء المذهب القديم فى العصور المختلفة حتى عصرنا هذا ، وعلى هؤلاء الأدباء أن يقدموا ما يستطيعون أن يعثروا به من أقوال أدباء المذهب الجديد لتطبع فى الناحية اليسرى من المجلة . لا شك أن أدباء المذهب القديم يتهربون من مثل هذه المقابلة كل التهرب . وما يقال فى كتب المذهب القديم الأدبية يقال أيضاً فى كتب التاريخ . أنظر بالله إلى الأبيات التى زعموا أن مسيلمة الكذاب بعث بها إلى سجاح المتنبئة والتى فيها (وإن شئتِ ... وإن شئتِ) كيف يستطيع أديب من أدباء المذهب القديم أن يطلع أخته أو بنته أو قريبة له من الفتيات على هذا الشعر ؟

ثم انظر إلى ذكر الفحش وقصصه ونظم الهجاء فيه شعرا تجد أن ادباء مايسمى بالمذهب القديم فى كل عصر حتى عصرنا هذا كانوا أكثر حظا منه. ولا أعنى جميعهم ، ولكنهم حتى الأفاضل منهم قد وجدوا هذا الأسلوب من القول عادة سقلها الدهن وهون أمرها فأصبحوا لا يجدون خطرا على الأخلاق فى نظم الهجاء فحشا ولا فى التحدث عنه ، ولكن الخطر كل الخطر هو تأثر الأدب العربى بنواحى القول كما وردت فى كتب الأدب الأوروبى .

وبعد فأى أدب أوروبى يعنون ؟ لقد تقلبت على الدول الأوروبية عصور اتخذ الأدب فى كل منها نزعة خاصة ، ولكنهم إذا تكلموا عن الأدب الأوروبي خيل للقارىء أنهم يعدون جميع الأدب الأوروبى فى عصوره المختلفة على طراز واحد وأنه مأوى المجون والاباحية والزندقة . إن عصور الأدب الأوروبى تختلف اختلافا يجعل بعضها أقرب إلى بعض الأدب العربى منها إلى

عصور أخرى من عصور الأدب الأوروبي، فالأدب الاغريقي في سهولة معانيه وخيالاته أقرب إلى الأدب الجاهلي العربي منه إلى الأدب الرمزي الأوروبي الحديث. والأدب الأوروبي الحديث في حرية الفكر أقرب إلى الأدب العباسي العربي منه إلى الأدب الأوروبي في القرون الوسطى. فاذا كان بعض الأدب الأوروبي الحديث قد دعا بعض أدباء المذهب الجديد إلى إبهام الايجاز والصور المتدخلة بعضها في بعض وإلى غموض الرمزية فقد ألف بعض أدباء المذهب القديم على هذه الطريقة في إبهام الايجاز من غير أن يطلعوا على الأدب الأوروبي. أنظر مثلا إلى إيجاز الرافعي في كتاب (حديث القمر) والكتب الأخرى التي كتبها، وكأنه لم يكتبها إلا لكي يثبت أنه يستطيع أن يزيد على معاني وصور أدباء أوروبا والمذهب الجديد وأنه أغنى منهم بمعانيه كما أنه أغنى منهم بأساليبه اللفظية الفصيحة العربية؛ ولكن فصاحة لغته العربية لم تخف الحقيقة الفنية، وهي أن الرافعي صاحب (حديث القمر) و(السحاب الأحمر) أقرب إلى أدباء الرمزية الأوروبيين منه إلى الرافعي صاحب كتاب (إعجاز القرآن). وإن بين أدباء المذهب الجديد من هم أقرب إلى الرافعي صاحب (إعجاز القرآن) وأقرب إلى أدباء العربية الأقدمين من الرافعي صاحب (حديث القمر) وأعني القرب في أسلوب التخيل وأسلوب عرض الصور الفكرية وكل صورة مستقلة غير متدخلة في أختها. فاذا أراد إذاً ناقد أن ينتقد المذهب الجديد أو الأدب الأوروبي كانت الطريقة المثلى أن ينتقد ما يسميه فيه على طريقة النقاد الفنيين فيبين الغث من السمين ويوضح أسباب حكمه على كل قول وكل أديب. أما أن يقول إن الأدب الأوروبي كأدب المذهب الجديد فاسد المعنى والخيال ينبو عنه الذوق العربي وتعجه الفصاحة العربية، وإنه مباءة المجون والاباحية والزندقة، فقول من لا يريد أن ينقد ولا أن تُقدَّر قيمة ما يقول قدراً صحيحاً، ولا أعني الأستاذ النمراوي فان هذه أحكام شائعة. نعم إن بعض الأدب الأوروبي ولاسيما الحديث منه يحث أدباء العربية على بعض ما يخالف العرف والتقاليد الاسلامية، ولكن أليس في أقوال شعراء العرب وأدبائهم في كل عصر أشياء كثيرة تخالف العرف والتقاليد والآداب والأخلاق الاسلامية كما أوضحنا بالشواهد؟

ونعترف أن في بعض الأدب الأوروبي الحديث ما يحث على الالحاد، ولكن أليس في أقوال زنادقة الدولة العباسية وفي ترويمات رجل فاضل كالمعري ما لا تسمح الحكومة بنشره لو أن أحد شعراء المذهب الجديد كان هو قائله؟ ولكن أقوال أدباء الدولة العباسية والمعري أقوال صقلها الدهر واعتادها الناس فلا بأس من أن يتفكه بها أدباء المذهب القديم في مجالسهم ولا بأس من نشرها وإيداعها مكتبات المدارس

وكما أن بعض الأدب الأوروبي أقرب إلى بعض الأدب العربي منه إلى عصور أخرى للأدب الأوروبي فكذلك بعض أدباء المذهب الجديد أقرب إلى أدباء المذهب القديم منهم إلى أدباء آخرين من أدباء المذهب الجديد، فأدباء المذهب الجديد اليوم أكثر حرية في القول وأكثر نصيباً من الرمزية من أدباء المذهب الجديد الذين ظهروا منذ ثلاثين سنة

(قارئ)

منتخبات من بلاغة الغرب

الجزء الأول

للأستاذ محمد كامل حجاج

... ولم أراك تئن من سرد مصابك وعذابك وتجفى ألا تراه إلا في عالم الرؤيا أو كحب كاذب كبرق خلب. أتخال أن القضاء يسير بغير حكمة ولا سبب، وتظن أن الضربة التي أصابتك ضربة طيش. كلا، فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. وربما كان ما أصابك واقيالك من أعظم منه. وقصاري الكلام أن بليتك هي التي أثارت قلبك، فالقادحات والأوصاب بمثابة المعلم؛ والانسان كالطفل المتعلم؛ وبقدر المزايا تكون المعارف. وانها لضرعة قاسية، ولكنها حكمة بالغة نديمة كالدنيا ونكدها

الفريد دوموسيه